امير الشعر في العصر القديم

بيئات امرىء القيس

يجب ألاّ ننسى تأثير البيئة التي نشأ فيها شاعرنا فنجعله كل شيء ونمحو تلك البيئة التي نشأته وكونته وتضافرت على تربية عقله وجسمه ومشاعره فهو ظاهرة من ظواهرها واثر من آثارها تلقى على يدها ما جال بخاطره واخذ عنها ما اوحت به شاعريته. ولسنا نغالي في اكبار تلك البيئة واضافة كل شيء اليها واستنباط كل شيء منها حتى ننفي الشاعر فيها ونتركه لاحول له ولا قوة بجانبها انما السبيل ان نقدر البيئة قدرها ونبوّئ الشاعر مكانه منها ونحدد الصلة بينه وبينها فكلاهما على الحقيقة متأثر بصاحبه ومؤثر فيه

(١) البيئة الطبيعية : — في الجنوب الغربي من آسيا وبين البحر الاحمر والخليج الفارسي وبحر الهند تقع بلاد العرب التي قسمت في عصر امرئ القيس الى خمسة اقسام جغرافية — تهامة ونجد والحجاز والعروض واليمن — واكثر الشعراء من ذكرها وتواصف طبيعتها وجمالها . وقد جابها امرئ القيس من اقصاها الى ادناها وضرب بجرانه فيها شرقاً وغرباً . وتلك البلاد جديرة بالالتفات اليها من حيث طبيعة ارضها ومزاج قطرها فلقد كان لذلك اثر في شاعرنا . فهي — على جدبها — نقية التربة ، مبسوطة الرقعة، مجلوة الآفاق، ممتدة الجنبات، وفيرة الوحش، كثيرة الطير، شديدة الحر، فيها جبال واودية ، ووهاد غائرة ، ونجاد عالية، وكثبان متنقلة، وعيون متفجرة، ومسايل جارية ، وصحارى شاسعة، وبقاع خصبة. جوها صحيح الهواء ، وسماؤها ضاحية الشمس سافرة البدر ساطعة الكواكب يتراكم فيها السحاب شتاء ثم ينجاب عنها وقد نبت في ثراها انواع من الكلأ والمرعى ذات اشكال مختلفة، والوان متعددة . مساكن اهلها بيوت مشيدة ، او خيام متنقلة على ظهور جمال بازلة، يأكلون لحومها ، ويشربون البانها ويتخذون من أصوافها وأوبارها أثاثاً ومتاعاً الى حين

قابل امرء القيس تلك الطبيعة الباسمة وجهاً لوجه فطلعت عليه الشمس بأشعتها النهبية المحرقة تصليه بشواظها . وبدا له القمر مرسلاً انواره الفضية الوادعة يبهر به ويملك عليه مشاعره . وسطعت النجوم ولا حائل بينه وبينها يرى سناءها ويبصر لألاءها . ووقف على الديار المقوضة والغدران المتلقة . وتراءت له الفلوات الواسعة

بها العين والآرام يمشين خلفة واطلاؤها ينهضن من كل مجثم

وعصفت من حوله الرياح العاتية تجعل من الرمال كثباناً او تجري رخاء وسلاماً

بنفسي تلك الارض ما اطيب الربا وما أحسن المصطاف والمتربعا

شمس تسطع وقمر يلمع ونجوم تتلألأ ورياح تلعب وظباء ترتع وخيام تقوض في جو فسيح كل ما فيه حر طليق. الحق انها طبيعة وادعة تملأ القلوب جمالاً ، والأفئدة جلالاً . وتدع في النفوس شغفاً زائداً بها واستجلاء لمظاهرها واحتراماً لاحداثها وحبًّا يملأ القلب ويشغل الجوانح . فلا عجب اذا وجدنا امرأ القيس يمسك ريشة فيرسم بها تلك الطبيعة في شعره ويتحدث عنها في خياله ، وسنقف على شيء من ذلك عند دراسة معلقته

(٢) البيئة الاجتماعية : — ان من اخلاق تلك البيئة التي عاش فيها امرؤ القيس : الشهامة والنجدة ، والشجاعة والنخوة ، والمروءة وعلو الهمة ، وكرم الخلق وشدة البأس والحلم والوفاء ، وإباء الضيم ، وعزة النفس . تمدحوا بذلك في اشعارهم التي جمعت محاسن اقوالهم . على اننا لا نكذب التاريخ فنبرىء الامة العربية الجاهلية كل البراءة وندعي ان تلك البيئة كانت سواء في اكتساب المحامد واطراح المآثم والمحارم فذلك سبيل اهل الخيال الذين يأخذون من كل منهل اصفاه ويرون في كل شيء غايته . فان من الاعراب شذاذاً وصعاليك كانوا يقترفون الفواحش او يجترحون السيئات . فيغدون على نساء مهينات مُظلمات كُنَّ يتوارين عن الانظار خارج المدائن والقرى وخلف مضارب القباب فاذا أرخى الظلام سدوله اسبل الرجل على آثار اقدامه إزاره ليعفي فوق الرمال معالمه ويمحو خطاه وغدا اليها تحت جنح الدجى لا تدركه الابصار . اما بناة الشرف وطلاب المجد فهم بمنجاة من هذا حتى لقد بلغت الغيرة بهم ان كان الرجل يمد يده الاثيمة الظالمة الى نفس وليدته الطاهرة التي بدأت تستقبل الوجود وتنهض في الحياة على قدميها فيلقي بها في حفرة من الارض ثم يهيل على جسدها التراب ويدعها تعالج سكرات الموت تحت اطباق الثرى . ولعمري اذا نحن اسدلنا الستار على تلك المظالم التي لم تعم جميع القبائل والاحياء بل اختص بها فريق دون آخر فانا واجدون تلك المرأة البدوية مثار عاطفة ذلك الرجل العربي ، ومدار وجدانه ، وسر حياته ، ومصدر الهامه ، ومناط آماله ، ومهبط وحيه ، وقبلة خاطره ، ومنتجع هواه ومجتلى قريحته ، ومطلع قصيدته . بها عناؤه ، وفيها شقاؤه . تغنى بمحاسنها وتمدح بشمائلها ، ووقف على اطلال دارها ومعالمها ، وائتمر بأمرها ، وتقبل أحكامها ، ونزل في غالب الاحيان على ارادتها ، وقل ان يغلبها على امرها . فهي نور الوجود في ناظريه ، وكل شيء بين يديه . حفت به تحت ظلال السيوف فاستمد منها عزماً أكيداً وبأساً شديداً ومن بين أحضانها خرج فتيان وفتيات نشأتهم منذ الطفولة على الشرف والسؤدد ولقنتهم آيات المجد والحمد . ولقد كان للعرب في ذلك الحين مجالس وأندية يغشاها الرجال والنساء . يتناشدون فيها الاشعار ويتبادلون الاخبار . وكان لهم اسواق تقام للبيع والشراء ويقف فيها

الخطباء والشعراء ويتفاخرون ويتناشدون ويتحاكمون بها الى قضاة عدول لهم بصر بنقد المنثور والمنظوم . وفي ذلك شحذ لاذهانهم وتنمية لافكارهم وتهذيب لتقهم

وكان لهم ايضاً حروب مشهورة وأيام معلومة لما فطرت عليه نفوسهم من سرعة الغضب والجرأة على الشر وحب النزوع والميل الى الانتقام والاخذ بالثأر . فلا تتفتح عيونهم الا على سيوف تتألق ، ورماح تلمع ، وأسنة تشرع ، وجياد تصهل ، ورؤوس تتطاير ، وأشلاء تتناثر ، وطير يهوي ، ووحش يزمجر . فرسخت فيهم صفات الفروسية وكثر بينهم القتل والنهب. وما كان لهم مقام بأرض وانما كانوا يتتبعون منابع الماء ويرتادون منابت العشب فتنازعوا على المرعى، وتدافعوا على النجعة، ونشبت بينهم دواعي الخلاف، وانتشرت العداوة والبغضاء وقامت الحروب، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً يتخطف بعضهم بعضاً . والشعر في تلك المواقع يقوم مقام الموسيقى إذ هو والغناء يحلقان كزوجي الطائر فوق رؤوس الربا وبين خمائل الزهر، يتناغيان بنجوى النفوس ويوقعان على اوتار القلوب تجيش بهما الافئدة في مثل تلك المواطن استنهاضاً للهمم ، وبكاء على القتلى، وافتخاراً بالعصبية والشعر يوحيه الحب والحرب والموت

اما ديانات العرب في ذلك العصر فكانت على ضروب شتى فمنهم عابد الشمس والقمر والنجم والشجر ، والنار والحجر، ومنهم من تهوّد أو تنصر، ومنهم من بقي على ملة ابراهيم يحج ويعتمر ، ويعظم الاشهر الحرم. ومنهم من كان مجوسيًّا يدين بمبدأ الخير والشر. ومثل ذلك الدين المضطرب الواهي قد اسلم العرب الى صنوف من العقائد وضروب من الهواجس رسخت في نفوسهم ، وعكفت من قلوبهم وأفئدتهم. فهناك بين ثنايا الجبال وأعطاف المناور صنوف من الحجر تطاول عليها القدم ، تنوعت اشكالها ، وتعددت الوانها . اتخذوا منها تمائم تجلب الخير وتدفع الشر بما لها من سر دفين وأثر كمين . واذا اعتزم الواحد منهم امراً أو أراد سفراً طلب معرفة مآله قبل اقدامه بالتفاؤل والتطير . وان بدأ ارتحاله وكان مبغضاً الى زوجته قامت الى النار فأوقدتها تحول دون مآبه وان كان عزيزاً عليها قبضت قبضة من أثر اقدامه واحتفظت بها حتى يعود اليها سراعاً . وان من افدح اثقال الظلم ان ترى الرجل منهم يعمد الى شجرة حين سفره فيعقد بين غصنين منها فان عاد وكان الغصنان على حالها زعم ان زوجه لم تخنه والا فقد خانته كأن عرض المرأة بل عرض القبيلة مرتهن بغصنين تعصف بهما الريح او تعبث بهما الايدي فتفرق بينهما. تلك صورة من مظاهر هذه البيئة الاجتماعية التي درج في عشها امرؤ القيس من المهد الى اللحد

(٣) البيئة الطبيعية : — ما كان العربي إلا إنساناً فيه عاطفة وبين جنبيه نفس متأثرة تعشق الحرية والتبدل وتحب الطبيعة والجمال، طال اصغاؤها لتلك الاغاني المترددة في اسجاع

الطير ، وحنين الابل ، وخرير الماء ، وحفيف الشجر ، وهزيم الرعد ، وعصف الريح ، وصهيل الخيل ، وقعقعة السيوف ، وصلصلة الاصفاد ، وزمجرة الوحوش . فما هو الا أن حكى صداها وصار وتراً من اوتارها يشدو معها . ضرب في تلك البادية القاحلة على ظهر مرحله البازلة يبتغي من فضل الله ترقصه تلك الايقاعات المتوالية . فهدته نفسه الشاعرة الى أن يلقي على ضروبها من ألحانه الساذجة حداء ناقته وإيناساً في وحشته . وما كان للناس عجباً ان عتاز العربي بهذا الشعر وأن يفوق فيه سائر الامم اذ لم يعرف عنه انه مال الى فلسفة أو نشط الى علم ، او زاول صناعة . وانما كان اهتمامه مصروفاً الى هذا الفن الجميل من القول ، ولم يزد ما أثر عنه من ضروب الحكمة على ان يكون في جملته أشبه بالحقائق المجردة التي لا تبعد عن متناول الفطرة واتاج التجربة والمشاهدة . وكل ما وصل الى العربي بعد ذلك من اسباب العلوم لا يتعدى معلومات أولية مبنية على قوة النظر وصدق الحدس ، ومستمدة من التجربة والمشاهدة حيناً ومخالطة من جاورهم من الامم احياناً . فمن ذلك علم النجوم فقد كان ما انبسط لأعينهم من رقعة السماء داعياً الى إدمان النظر في كواكبها وتعرف صورها وأنوائها ، ومطالعها والوانها ، وغروبها وأشكالها وتوصلوا بذلك الى معرفة اوقات الخصب والمحل ، والريح والمطر ، واهتدوا بها في ظلمات البر والبحر

أما علم الطب فكان ينبوعه تجربة قاصرة متوارثة عن مشايخ الحي وعجائزه فلم يكن يتجاوز عندهم الكي بالنار ، وبتر الاعضاء بمحمى الشفار . واتخذوا من العسل دواء ، ووجدوا في عصارات بعض النباتات شفاء . وكثيراً ما كانوا يتداوون بالرقى والعزائم والتمائم واشتهر بذلك العرافون والكهان . ومن خرافاتهم ان المجروح اذا شرب الماء فاضت نفسه وان المرأة إذا ذعرت من شيء حتى يرد قلبها تسقى لشفائها ماء حاراً

وقد توصلوا بقوة ذكائهم إلى الاستدلال على اخلاق الشخص وصفاته من هيئته وكلامه وظاهر اعضائه وتلك هي الفراسة . أما القيافة فهي الاستدلال بآثار الاقدام على أصحابها ولقد بلغوا في ذلك من الاعاجيب أمداً بعيداً ففرقوا بين آثار المرأة والرجل والاعمى والبصير

ومع انتشار الامية فيهم ادت قوة الحافظة عندهم الى تفوقهم في علم الانساب يعرفون به القابهم ويحفظون أصولهم واحسابهم فلا يدخل رجل في غير قبيله ، ولا يدعى الى غير أبيه . دعاهم الى ذلك اعتزازهم بالعشيرة ومغالاتهم في العصبية . وكانت من معارفهم الكهانة والعرافة وزجر الطير والطرق بالحصى . يبتغون بذلك اختراق حجب الغيب ومعرفة سراره ومكنونه . أما بصرهم بالخيل ومعرفة شياتها واوضاحها وعتاقها وما يستحب من صفاتها وما يتعلق بها من انتاج وبيطرة فقد فاتوا في ذلك سواهم من الامم . أما تاريخهم وأحوالهم فصحائفها منشورة في شعرهم فهو ديوان علمهم وأخبارهم

دار العلوم محمد صالح سمك